بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكتسب العقاد مكانته الأدبية الرفيعة من جاه ولا من وظيفة ولا من لقب علمى ، إنما اكتسبها بكفاحه المتصل العنيف الذى يُعد به أعجوبة من أعاجيب عصرنا النادرة ، فقد تحول بعد حصوله على الشهادة الابتدائية يزود نفسه بالمعارف زاداً وافراً ، واحتل الأدب قلبه وشغله عن كل متاع فى دنياه مستأثراً بكل ما فيه من قوة وفكر وعاطفة . ولا يخطو فى العقد الثالث من عمره خطوات حتى يفجأ البيئات الأدبية فجآت متوالية بما ينقل عن الغرب من آثار محللا وناقداً مستنبطاً مناقشاً ، وبما يرسم للشعر العربى من وجهة جديدة تتأثر فيها ملكات الشاعر بما يتجاوب حوله من موسيقى الطبيعة وأصداء الجمال .

وهدته بصيرته النافذة منذ أول الأمر إلى أن واجب الأديب العربى المعاصر أن يتطور بأدبنا فى ضوء الآداب الغربية حتى يخرج به من عالمه التقليدى بقيوده وأغلاله اللفظية والمعنوية إلى عالم حر فسيح تندفع فيه أمتنا العربية اندفاعاً إلى حرية التفكير والتعبير ، بحيث تتوهج جذوة الآمال القومية فى ضميرها توهجاً ، وبحيث يحيى أدبها حياة قوية حافلة بما يملأ النفوس إعجاباً . وفرغ لهذه الغاية النبيلة ، وقصر عليها كل ملكاته ، وكانت ملكات خصبة أروع ما يكون الخصب ، لما امتلك من عقل ذكى ثاقب ومن

شعور رقيق مرهف ومن حس دقيق حاد ومن قدرة بارعة على درْس ما يقرؤه وبحثه وتحليله ، فعكف على قراءة فلاسفة العرب والغرب ، وانفتحت له أبواب أدبنا والآداب الغربية على مصاريعها ؛ ونفذ من كل ذلك إلى صورة أدبية عربية جديدة ، فسح فيها لطاقات التعبير ، حتى لكأنما انتقل بأدبنا من ضفة إلى ضفة .

وهى صورة تغذوها الآداب العالمية والعربية بخير ما تحمل من فكر وشعر ، وكأنها وقود هشيم يلقى به فى نار مشتعلة فيزيدها اشتعالا والتهاباً ، وهى نار تضطرم فى نفس مصرية عربية وَعتْ وعياً دقيقاً روح أمتها وما ترنو إليه من مثل عليا فى الحق والخير والجمال ، وما كانت تئن منه تحت أثقال الاستعمار والاحتلال ، وهو أنين أشاع الضيق بالحياة فى ديوان العقاد الأول ، ولكنه الضيق الذى لا يثبط الهمم ولا يفل العزائم ، بل يدعو إلى الإقدام وإلى العزم الصادق وإلى المراد البعيد وما ينبغى أن يملأ قلوب مواطنيه من الأمل والثقة والإحساس بالكرامة ، وهو إحساس تعمقه حتى أصبح له عقيدة ، وحتى استطاع أن يبسط سلطانه على حياتنا الأدبية ، فإذا هو يرد على الأدباء كرامتهم وما ينبغى لهم من تجلة وتوقير وتقدير .

وقد حاولتُ — فى الصحف التالية — أن أصور فى إجمال سيرة العقاد ومراحلها وما اختلف عليه من مؤثرات وما تمتاز به شخصيته من مقومات مادية ونفسية وعقلية وروحية ، وكيف دفع مع جيله بقوة أدبنا إلى تطوره الحى المثمر ، وكيف استقر سريعاً عند الأفكار التى ظل يؤمن بها طوال

حياته ؛ مما جعل الفكرة عنده كفكرة الحرية تتجلى فى طائفة من مقالاته ومجموعة من مؤلفاته ، بحيث يمكن أن يرد جمهور ما كتبه من مؤلفات ومقالات إلى تيارات فكرية محصورة . ووقفت عند عبقرياته التى رسم فيها لأمتنا العربية شخصياتها المثالية بكل ما تتحلى به من كمال وجلال ، كما وقفت عند قصته « سارة » وما بثه فيها من تحليل نفسى دقيق . وعرضت نشاطه النقدى ، وكيف ثبت فى محيطنا الأدبى تثبيتاً قويا المعايير والمقاييس للصورة الجديدة التى ابتغتها مدرسته لشعرنا الحديث ، بحيث يصدر عن روح الأمة ، وبحيث يكون حديث نفس حديثاً يتعمقه الشعور والفكر ، مما دفعه إلى نقد شوقى زعيم مدرسة الإحياء والبعث فى عصره نقداً عنيفاً ، كما دفعه إلى دراسات أدبية نفسية قيمة . وهى صورة قامت على تغيير المضمون الشعرى دون مساس واسع لإطار الشعر التقليدى ، إطار الوزن والقافية ، مما جعله يعارض صورة الشعر الحر الجديد . وتحدثت عن دواوينه وذكرت أن الموضوعين الأساسيين فى شعره — وخاصة فى ديوانه الأول — هما الإنسان والكون أو الحب والطبيعة ، فقد صور من خلالهما مشاعره الصادقة إزاء الطبيعة الإنسانية والحياة والوجود ، وكان قلبه يزخر فى ثنايا ذلك بشعور الجلال لأمجادنا الغابرة والثقة بنضالنا القومى والإحساس بما كان يبهظ الشعب من المسغبة والبؤس مع مقاومته الصامدة العاتية . ولاحظت أن عاطفته الحارة أخذت — بحكم تقدمه فى السن — تزايل دواوينه الأخيرة تاركة مكانها لضرب من التأمل والأفكار المجردة .

وكل ما كتبته — فى هذه الصحف القليلة الضيقة — عن العقاد إنما هو

تخطيط عام لسيرته وتراثه الضخم فى عالمى النثر والشعر ؛ وهو تراث سيظل خالداً على الزمان ، تقرؤه الأجيال المعاصرة والقادمة وتسيغه متمثلة فيه صورة حية نابضة من صور عبقريتنا العربية الحديثة . والله ولى الهدى والتوفيق .

القاهرة فى أول يونية سنة ١٩٦٤ — شوقى ضيف

obeikandl.com